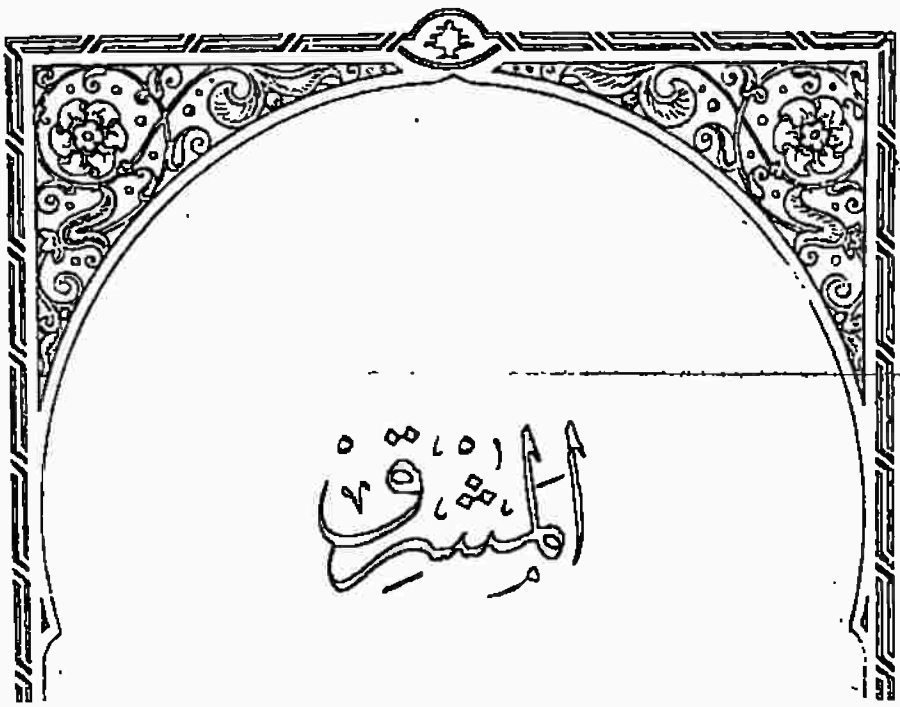

السنة السادسة والاربعون
اذار - نيسان ١٩٥٣

من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

المستطاب من اخبار القبقاب

كانت عادة احتذاء القبقاب شاملة كل ديار الاسلام في الشرق والغرب. ومن الابيات التي حُفظت في وصفه بالمغرب ما كتبه ابو الحسن علي بن محمد بن علي بن البناء الاندلسي من مدينة وادي آش (Guadix) وقد اهدى « قباقيب خشب جوز » الى لسان الدين الخطيب المشهور. قال فيها :

هاكها خُضَّرًا طابا حسانا نشأت في الرياض قضبًا لدانا
ونشوت بين دوح وغدير مُرضعات من النمير لبانا
لابسات من الظلال برودًا دوحها الغض رقّة وليانا
ثم لما اراد إكرامها الله وسوّى لها المُنى والاماني
قصدت بابك العليّ ابتدارا ورجت في قبولك الاحسانا (١)

(١) نفح الطيب ٣ : ٤٧٥

واجود منها البيتان الآتيان نسبهما البدري في « محاسن الشام » لابن هانئ الاندلسي وابن حجر العسقلاني وابن تغري بردي لأقوش البيسري وهما مما كان يكتب على القبقاب :

كنتُ غصناً بين الرياض رطيباً مائل القد من غناء الحمام .
صرت احكي عداك في الذل اذ صرتُ مهاناً أداس بالاقدام

وكانت دمشق من اشهر الحواضر التي عُرفت بصناعة القبقاب ولم تبرح الى اليوم محفوظة فيها ولها سوق مخصوصة وراء الجدار القبلي من الجامع الاموي تُعرف «بالقباقيبية» ومن دمشق كانت تُجلب مصنوعاتها الى مصر ولذلك عدّها البدري في جملة القافات التي تُحمل من دمشق للديار المصرية[1] .

واختلفت انواع القبقاب ولم يُحفظ من اسمائها القديمة الا « الزحّاف » ورد ذكره في ترجمة قاضي القضاة زين الدين التفهني الحنفي من اهل القرن الثامن للهجرة قال تقي الدين المقريزي : وواقعته مع الميسوني مشهورة من حكمه بسفك دمه وعقد بسبب ذلك مجالس والميسوني يحاججه عن نفسه ويقول له : أتّق الله يا عبد الرحمن أنسيت قبقابك الزحّاف وعيّنتك القطن ؟[2] ولا يزال هذا الاسم باقياً بدمشق يقال له الزحّافي واحياناً الجركسي او المُهاجر لاتخاذ الجراكسة له المهاجرين في الصالحية وهو اقل الانواع ارتفاعاً والصقها بالارض واوطاها ثمنا .

وهنالك نوع آخر كان يقال له فيما يظهر « قبقاب سجلك » اشار اليه ابن اياس في وفاة قاضي القضاة محيي الدين بن النقيب بمصر سنة ٩٢٢/١٥١٦ قال: كان سبب موته انه كان يمشي في الاسواق بقبقاب سجلك فتوجه الى خان الخليلي فرفسه فرس فوقع على فخذه فانكسر فحملوه الى خلوته التي في المدرسة المنصورية فاقام بها اياماً ومات[3] .

ومن احذائه الشائعة اليوم في القبحا . « الشبراوي » لارتفاعه شبراً او نحو ثلث ذراع و « العكاوي » وهو دونه علواً لا يُدرى هل سمي كذلك لاتخاذ

١) نزهة الانام في محاسن الشام ٣٦٤
٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي . باريس ٢٠٧١ ج ٤ : ٤٥
٣) بدائع الزهور لابن اياس ٣ : ١٧

اهل عكا له او لانه ربما كان يصنع قبلاً في مدينتهم و « الكندرة » لشبه بالحذاء المعروف بهذا الاسم بين العامة.

وربما اناف ارتفاع القبقاب على نصف ذراع كان يرغب فيه من بُلي بالقِصر المفرط او أغري بحب العظمة والظهور . ومن الاقزام الذين وصلوا قامتهم بطول قبقابهم الحسام اقوش المؤذن بالجامع الاموي من صلحاء القرن السابع للهجرة « عُمل له قبقاب عالٍ جداً ليرفعه من الارض كان يطلع به جرياً في سلالم كل مأذنة واعتاد ذلك »[1] ونقل رضي الدين ابن الحنبلي في ترجمة رمضان فتح الدين المنوفي نزيل حلب من اهل القرن العاشر انه « كان مشهوراً بالميل الى العظيم من كل شيء وكانت عمامته عظمى واكمامه في غاية الاتساع وجبته المصقولة في غاية الصقالة وقبقابه في غاية الارتفاع »[2].

وكان « الزحاف » اكثر الاشكال رواجاً لرخصه وسهولة المشي والجري به ولذلك رغبت به العوام ولما توفي ابن تيمية بدمشق سنة ١٣٢٨/٧٢٨ « ذهبت النعال من ارجل الناس وقباقيبهم ومناديل عمائهم لا يلتفتون اليها لشغلهم بالنظر الى الجنازة »[3] واعتاده قوم فكانوا يصعدون الجبال او يسافرون مشياً به . حكى ابو شامة في ترجمة الشيخ ابي عمر شيخ الصالحية والمقادسة المتوفى سنة ١٢١٠/٦٠٧ انه « كان يصعد يوم الاثنين والخميس الى مغارة الدم (في جبل قاسيون) ماشياً بالقبقاب فيصلي فيها ما بين الظهر والعصر »[4] وروى ايضاً في كلامه على الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي احد شيوخ الصالحيين المتوفى بسفح قاسيون سنة ١٢٢١/٦١٨ قال : قال ابو المظفر : كان سليم الصدر من الابدال ما خالف احداً قط رأيته يوماً وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان : ما تروح الى بعلبك ؟ فقال له : بلى فمشى من ساعته الى بعلبك بالقبقاب »[5]

---

١) تالي كتاب وفيات الاعيان للصفاعي . باريس ٢٠٦١ ص ٨٥

٢) در الحبب في تاريخ اعيان حلب . باريس ٢١٦٠ ص ٦٠-٦١

٣) البداية والنهاية لابن كثير . خزانة اكسفرد Marsh. 676 f° 121b

٤) ذيل الروضتين . باريس ٥٨٥٢ ص ٧٦-٧٧

٥) » » » » ص ١٤٣

ومن اغرب ما حُكي عن احد ارباب الملاعيب من حلب حضر الى مصر سنة ٩٢٤/١٥١٨ « ونصب في بركة القرع التي بالحسينية صواري وحبالاً وكان يوم الجمعة فلما صعد على الحبال اظهر اشياء غريبة منها انه مشى على الحبل وفي رجله قبقاب وتحته الواح صابون »[1].

واغرب ما زعموه ان الشيخ ابا العباس احمد بن قدامة المقدسي المدفون سنة ٥٥٨/١١٦٣ في سفح قاسيون « كان صاحب كرامات ... مشى على نهر يزيد بالقبقاب فلم يبتل »[2].

واكثر ما كان يلبس القبقاب في الاسواق والازقّة اتّقاء للوحل ايام الشتاء. ولذلك قال ابو الحسين الجزّار :

لئن قطع الغيث الطريق فبغلتي وحاشاك قبقابي وجوخيّ الدار[3]

واعاد هذا المعنى في قصيدة له اخرى فقال :

جبّتي في الامطار جلدي ولُبّا ديَ ثوبي وبغلتي قبقابي[4]

وكان القبقاب يُصطنع من خشب الجوز والمشش والتوت والصفصاف والزان ويُطعّم بالاصداف والعظم وتُحدّ فيه الاسلاك من القصدير او الرصاص ويغلب استعماله مسدوناً ولم يكن يلبسه من الخشب الابيض الا المصرون والفقراء. ومن غانيهم الدهر من الاغنياء والعظماء. واشهر من احتذاه من الخلفاء القادر بالله العباسي ومن القاطميين المستنصر بالله بعد ان خرج من جميع ما يملكه في القصر. ولما قدم ناصر الدولة بن حمدان الى مصر سنة ٤٦٤/١٠٧٢ وحكم فيها « سيّر الى المستنصر يطلب منه المال فقدم اليه الرسول فاذا هو جالس على حصير وفي رجله قبقاب من خشب ابيض من غير دهان ولا سير وحوله ثلاثة من الخدم »[5].

---

١) بدائع الزهور ٣ : ١٦٢

٢) حدائق الانعام في فضائل الشام لابن عبد الرزاق الدمشقي. المكتبة الظاهرية بدمشق

٣) فوات الوفيات لابن شاكر ٣ : ٢٩٨

٤) الرابع من المُغرب في حُلى المَغرب لابن سعيد ١٥٦

٥) الكامل لابن الاثير ٨ : ٢٢٣-٢٢٣ واخبار مصر لابن ميسر ٢١

وربما اتخذ القبقاب احياناً من الرخام لثقله ليلبسه المتسابقون في العوم والسباحة وممن تميّز بذلك في ايام السلطان الملك المؤيد شيخ المعلّم مؤمن من معلمي النشاب شوهد « وهو يعوم في النيل بحضرة السلطان المؤيد المذكور . وفي رجله قبقاب من الرخام وقد علّق برقبته قفّة فيها آلات طبخ المأمونية ومنها كانون بنصاب من اسفله ومعه قوس موتور شبكه على رأسه وفي فمه سهم نشّاب وهو يطبخ في الكانون المذكور بلطافة في قالب لطيف من النحاس مأمونية . . . فاذا نضج ذلك قرب بالعوم من الشاطئ . وافرغ ذلك في آنية لطيفة والسلطان ناظر اليه . وبعث به الى السلطان فيأكل من ذلك ثم يعود هو بالعوم على هيئته الاولى شارعاً في الطبخ ثانياً . ثم يدخل نصاب الكانون في فمه . ويأخذ السهم بيده مكان الكانون وهي اليد اليسرى ثم يتناول القوس من على رأسه بيده اليسرى ويضع السهم في الوتر ويستوفيه ثم يطلقه وهو عائم على تلك الحالة »[1] .

وهذه غاية الغايات في الحذق والقدرة والرشاقة .

وانفرد الاغنياء والامراء والملوك باتخاذ القبقاب من الذهب المرصّع بالجواهر قال المقريزي في كلامه على الملك الناصر محمد بن قلاوون : استجدّ النساء في ايامه القباقيب الذهب المرصعة بالجوهر[2] : وبيع في تركة الامير علاء الدين اقبغا عبد الواحد « قبقاب وسرموزة وخفّ نسائي بمبلغ خمسة وسبعين الف درهم فضة عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار »[3] . ولما ماتت ابنة الناصر خوند زوجة الامير طاز « تركت مالاً عظيماً . . من جملته قبقاب مرصّع باربعين الف درهم عنها الفا دينار مصرية »[4] وفي سنة ٧٧٤/١٣٧٢ قدم الامير منجك نائب الشام الى مصر وكان في جملة هديته للسلطان « ثلاثة قباقيب نسائية من ذهب فيها اثنان مرصّعان بالجوهر قيمتها مائة وخمسون الف درهم عنها نحو ثمانية آلاف مثقال من الذهب »[4]

---

١) الروض الباسم لعبد الباسط ابن خليل الحنفي . خزانة الفاتيكان ٧٢٨ ص ٤٧
٢) السلوك للمقريزي . باريس ١٧٢٦ ص ٤٩٧
٣) » » » » ص ٦٠٢
٤) » » » ١٧٢٧ ص ٧٤

ومن هذه الشواهد يتضح ما وصلت اليه صناعة القبقاب بدمشق خصوصا من الاتقان والبذخ والابداع .

واتفق احياناً أن كان القبقاب سبباً للهلاك والموت . وممن تلف به قاضي الحنفية بمصر برهان الدين ابرهيم بن الكركي سنة ١٥١٦/٩٢٢ « كان ساكناً على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون . وفي رجله قبقاب فزلقت رجله فوقع في البركة وكانت في قوة ملئها ايام النيل »[1] و « لم يتفق احد يسعفه . فاستطأوه وطلبوه فوجدوا عمامته عائمة وفردة القبقاب على السلم »[2] . وفي سنة ١٤٥٣/٨٥٧ « دخل رجل من العوام جامع الازهر . فامسكه المجاورون برواق الارياف وذكروا انه اخذ لهم قبقاباً وتكاثروا عليه وضربوه حتى مات »[3] .

ومن اغرب ما استُعمل فيه القبقاب تسيير اللصوص عليه وقتل القتلة تشفياً في العقاب . « ففي خامس عشر ربيع الاول سنة ٧٧٨ (١٣٧٦ م) سُيّر من رجال المنسر[4] ثانية عشر على جمال وثلاثة سيّرت ايديهم في الحشب

١) بدائع الزهور لابن اياس ٣ : ٤٤

٢) شذرات الذهب لابن العماد ٨ : ١٠٤

٣) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الايام والشهور لابن تغري بردي . طبعة ليدن ص ١١٣

٤) المنسر في اللغة هو للطير الجارح كالمنقار لغير الجارح ويطلق ايضاً على قطعة من الخيل او قطعة من الجيش ثم قدام الجيش الكثير ويراد به هنا عصابة من اللصوص والسراق كانت تجتمع لمهاجمة البيوت والمحال ليلاً والعيث والفساد سُمّيت كذلك فيما يظهر اخذاً من المعاني الثلاثة المذكورة وهي جميعا الوجه غير واردة في المعاجم ولا في تكملة دوزي . وبقيت هذه العصابات الى القرن العاشر للهجرة قال ابو السرور البكري في كتابه «الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المنزية (من خزانة الفاتيكان رقم ٧٣٦) في كلامه على ولاية مسيح باشا من سنة ٩٨٢ الى ٩٨٧ » يقال انه قتل في هذه المدة نحوا من عشرة آلاف نفس وغالبهم من اهل الفساد لان المناسر كانت في زمن حسين باشا كثيرة فقطعها مسيح باشا المذكور ومن بعدها الى الآن انقطع اثر المناسر والسراق الا القليل (ص ٣) ثم قال في ولاية الوزير مصطفى باشا البستنجي : في زمنه كثرت المناسر بمصر وهم اليلاق بنهم فصارت المناسر في كل ليلة تأخذ محلا واستمر الامر متزايداً ابداً من المناسر ورحلت الناس من وطاقها (ص ٧٩)

والسوا في ارجلهم قباقيب خشب ثم سُمّرت ارجلهم فيها وأكرهوا حتى مشوا وهم مسرّرون كذلك وشهروا جميعاً بالقاهرة »[1] قال ابن قاضي شهبة : « ولم يسمع بمثل ذلك[2] ». وفي سنة ١٢٥٧/٦٥٥ توفي السلطان المعزّ ايبك التركماني وكان قد تزوج بشجر الدر حظيّة استاذه الملك الصالح ثم ارسل خطب ابنة صاحب الموصل . فلما تحققت شجر الدر ذلك أغرت به الخدام في الحمام وجعلت الجواري ترفسه وشجر الدر تضربه بالقبقاب الى ان مات[3] ثم أُقيم من بعده ابنه الملك المنصور نورالدين عليّ فحملت شجر الدر الى أمه فضربها الجواري بالقباقيب الى ان ماتت[4] واقتدين بذلك بنساء الخليفة الظافر لما فتك به نصر بن عباس ووقع بعد هربه بين ايدي الفرنج فبعث الملك الصالح طلائع بن رزّيك يطلبه منهم ويبذل لهم اموالا . « ولما وصل سلّمه الى نساء الظافر فأقمن يضربنه بالقباقيب والزرابيل اياماً وقطعن لحمه واطعمنه اياه الى ان مات ثم صُلب »[5] . وكذلك فعل الملك الظاهر بالملك المغيث ابن الملك العادل لما وصل اليه في مخيّمه في بيسان « امسكه وجهّزه الى مصر وكان آخر العهد به . وقيل انه جهّزه الى امرأته فضربته جواريها بالقباقيب الى ان مات[6] ولما قتل الأمير كتبغا الامير سنجر الشجاعي وزير الملك محمد الناصر رسم بان يُطاف برأسه في مصر والقاهرة « وكان اكثر الناس يكرهون سنجر الشجاعي فصاروا يعطون المشاعلية شيئاً من الفضة ويأخذون منهم الراس ويدخلون بها الى دارهم وما يزالون يصفعونها بالقباقيب والنعال حتى يشتفوا منه »[7] .

وآخر ما خُتم به تاريخ القبقاب انه دخل في ادوات التعزير فكان يعلّق في عنق المشهّرين ففي سنة ١٤٤٩/٨٥٣ « عُزّر شخص امشاطي وطيف به على

---

١) السلوك للمقريزي . باريس ١٧٣٧ ص ٧٤
٢) الذيل . باريس ١٥٩٩ ص ١٤
٣) عيون التواريخ للكتبي . الخزانة التيمورية ج ٢٠ : ٨٦-٨٧
٤) السلوك ١٧٣٧ ص ١٢٥
٥) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي صبحة ليدن ٣ : ٦٤
٦) روضة المناظر لابن الشحنة هامش الكامل لابن الاثير ١٢ : ١٥٣
٧) بدائع الزهور لابن اياس ١ : ١٢١-١٢٢

حمار وفي عنقه قبقاب »[1] . وفي هذا المعنى وضع امين الدين الدمشقي الصالحي الهلالي المتوفى سنة ١٥٩٥/١٥٩٦ جزءاً في هجاء بني الخطاب الذين كانوا قضاة مالكية في دمشق سماه « قرع القبقاب في قرعة بني الخطاب » وفيه كل عجيبة وكل مسألة غريبة[2] .

جاري وزراء دمشق وجرايتهم في دولة المماليك

الجاري في اصطلاح المولدين هو المال الذي كان يُطلق مُشاهرة للعمال وكتاب الدواوين وسائر رجال الدولة والدين قال ابو اسحاق الكراني يخاطب عضد الدولة :

أين الرعاية يا ابن كل مملّك ... رُفعت له في المكرمات منار
ان تنقطع الجاري اليسير عن امرىء ... ردفت كتابته لك الاشعار[3]

وهذا المعنى لم يُنبّه عليه في كتب اللغة وكان يُعبّر عنه قبلاً باسم « الرزق » وغلب عليه اخيراً في الدولة المصرية لفظ « المعلوم » و « المعاليم » وقيل في معناه ايضاً « الراتب » و « المرتّب » و « الجامكيّة » و « المقرّر » و « القرار » قال ابن العديم في كلامه على حصار الملك الناصر صلاح الدين حلب سنة ١١٨٣/٥٧٩ « وجدّ الملك الناصر بسبب اخيه على محاصرة حلب ايّاماً فاجتمع اليه الاجناد من العسكر والرجال وطلبوا منه قرارهم فطلبهم فقالوا : قد ذهبت اخازننا ونحتاج لغلاء الاسعار الى ما لا بدّ منه . . . وكان الحلبيون يخرجون على جاري عادتهم ويقاتلون اشد قتال بغير جامكية ولا قرار نخوة على البلد »[4] والجامكية لفظة فارسية وفي معناها اليوم « الماهية » في اصطلاح العامة نسبة الى الماه وهو الشهر بالفارسية .

وكانت الارزاق فيما عدا النقود تشتمل ايضاً على مقادير من الطعام والادام

---

١) التبر المسبوك للسخاوي ٢٦٧
٢) خلاصة الاثر للمحبي ٤ : ٣٥
٣) معجم البلدان ٤ : ٢٤٨
٤) زبدة الحلب خزانة باريس ١٦٦٦ ص ٣٠٢-٣٠٣

والتوابل والكسوة والحوائج كان يُطلق عليها خصوصاً اسم « الجراية » و « الوظيفة » و « الراتب » ايضاً واهم ما فيها للجنود الخبز ولذلك غلب على رزق الجندي اسم « الخبز » كما تقدم من كلام ابن العديم وهو يرد كثيراً في « خطط » المقريزي وتواريخ الدولة المصرية ولابن نباته يطلب جراية خبز :

لجأت الى باب الامير وظله وفارقت ذلي اذ وصلت الى العز

واصبحت من جند المحامد والتقى ولا بد للجندي من طلب الخبز (١

وقد اشار الطبري عَرَضاً الى هذه الارزاق في الاعصر الاولى ونقلها عن الجهشياري فقال :

« كانت ارزاق الكتاب والعمال في زمان ابي جعفر (المنصور) للرؤساء ثلثمائة درهم للرجل ونحو ذلك . وكذلك كانت في ايام بني امية وعلى ذلك جرت الى ايام المأمون فان الفضل بن سهل (وزير المأمون) وسع الجاري[٢] وربما كان رزق احد الكتاب في الدواوين عشرة دراهم حكى يوسف بن صُبَيح انه كتب كتاباً للمنصور املاه عليه ثم قال له : كم رزقك يا يوسف في ديواننا قال : فقلت عشرة دراهم فقال لي : قد زادك امير المؤمنين عشرة دراهم »[٣] وما زالت الارزاق ترتفع وتنمو مع الايام حتى بلغت التوسعة والزيادة مبلغاً فاحشاً في خلافة المعتضد والمقتدر ومن جاء بعدهما ولما خلع المتوكل على عبدالله بن يحيى بن خاقان وأهّله للوزارة « اجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم »[٤] (٦٦٧ ديناراً) . وفي خلافة المعتضد كان حامد بن العباس يتقلد فارس برزق الفين وخمسمائة دينار فجعلها المعتضد ثلاثة آلاف »[٥] واجرى المقتدر على ابي علي محمد بن خاقان وابي الحسن علي بن عيسى لما اسند الى كل منهما الوزارة خمسة آلاف في كل شهر[٦] وكذلك كان رزق الوزير ابي

١) ديوان طبعة مصر ٣٦١

٢) كتاب الوزراء والكتاب ١٤١

٣) كتاب الوزراء والكتاب ١٥٠

٤) نشوار المحاضرة للتنوخي ٨ : ١٢

٥) تاريخ الوزارة للصابي ٨٢

٦) تاريخ الوزراء ٣٦٢ و٣٨٢

العباس الخصيبي[1] ورزق ابي الحسن بن الفرات ولما وزر ابن الفرات للمرة الثالثة للمقتدر « وفر الجاري ولم يأخذه وتقدم بردجاري اصحاب الدواوين وكتّابهم وكتابه الى ما كان عليه في ايامه الاولى فاضعف ذلك وصار جاري ديوان السواد وكتابه مع ثمن الكاغد والقراطيس نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر[2] ويظهر ان هذا المقدار كان ايضاً جاري الوزارة في ايام المقتدر قال الصابئ : « عرّج ابن مقاتل الى احمد ابن يحيى كاتب الوزير ابي الحسن علي خاصة فقال له : كم يرتزق الوزير في الشهر قال : سبعة آلاف دينار قال : قسط اليوم فيها مائتان وثلثة وثلثون ديناراً وقسط الساعة نحو عشرين ديناراً[3] ومن هذه الملحة يتضح ان رزق الوزير في اواخر الدولة العباسية في الساعة الواحدة كان يوازي رزق العامل في اوائلها في الشهر كله ولا عجب فان الارزاق كانت تتطوّر بتطوّر اسباب المعيشة واختلاف قيَم النقود وتتغير وتتبدل بتبدل الدول وتمكن العمال وحظوتهم او تخلفهم وقد اتفق للهلال الصابئ تفصيل جملة الجواري والنفقات في ايامه في الخلافة العباسية ساقه في كتابه تحفة الامراء (ص ١٤—٢٢) ولكنه اجمل ولم يفرد قسط كل منصب وديوان على حدة كما فعل المقريزي في الكلام على ديوان الرواتب (الخطط ٢ : ٢٤٢—٢٤٤) والقلقشندي في الفصل الذي عقده في كتابه صبح الاعشى لتعريف ارزاق الوزراء وحواشي الخليفة وارباب الرتب والقضاة وكتاب الدواوين والمستخدمين والفرّاشين والركابية (٣ : ٥٢٥—٥٢٧) ولا نعلم ان مؤلفاً غيره نبّه على مثل ما نبّه عليه ولا توسّع مثل توسّعه في تعيين الرتب والخدَم وتفصيل جاري كل منها في دولة الفاطميين ولكنه لم يتعرض لذكر ما كان يصحب هذه الجواري من الوظائف والجرايات والاكسية فغاتنا في هذا الاهمال فوائد شتى ذات بال في تاريخ الغلال والموائد والثياب وانواعها وما كان ينسج منها في البلاد او يجلب من الآفاق ولا يخفى محل ذلك كله في تعريف ماضي الزراعة والصناعة ووصف الحضارة العربية .

١) تجارب الامم لابن مسكويه ٥ : ١٥٥
٢) تاريخ الوزراء ٢١
٣) » » ٢٥١

وقد اطلنا البحث والتنقيب عما كانت عليه ارزاق النواب والوزراء بدمشق منذ انتقلت الخلافة منها الى بغداد فلا ندري اليوم كم كان جاري ابرهيم بن المهدي مثلاً حين قلده اخوه الرشيد على دمشق وقد سكت الصفدي عن ذكر شيء من ذلك في كتابه « تحفة الالباب في من ولي دمشق من الملوك والامراء والنواب » ولم يتفق لابن القلانسي مرة الإلماع الى رسوم الدولة الفاطمية في ما كانت تطلقه لقوادها وامرائها في ولايتهم دمشق وقد خلا كتابه « ذيل تاريخ دمشق » من اقل اشارة الى ارزاق العمال في ذلك العهد وغاية ما عثرنا عليه في هذا الباب قول عام لشهاب الدين العمري في كلامه على ارباب الاقلام في الدولة الناصرية في القرن الثامن للهجرة قال في مسالك الابصار :

« اكبرهم كالوزير له في الشهر مئتان وخمسون ديناراً جيشية(١ ومن الرواتب والنفقة ما اذا بُسط وثُمّن كان نظير ذلك ثم دون ذلك ودون دونه ولاعياضم الرواتب الجليلة من اللحم والخبز والدقيق والشمع والسكر والكسوة ونحو ذلك الى غير ذلك مما هو جارٍ على العلماء واهل الصلاح من الرواتب والاراضي المؤبدة وما يجري مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لا يوجد بمملكة من الممالك ولا مصر من الامصار » (٢

وهذه الجواري والرواتب كانت تُعيّن دون ريب في كل ولاية وتقليد وتُفصّل في التوقيع الشريف الذي كان يُرسم به لمن تولى احد المناصب في الدولة المصرية وقد حفظ من نسخ الكتابات السلطانية عدة امثال كانت تكون من انفس الآثار واثمن الذخائر لمعرفة ما كان يتعلق بتاريخ الخدم الديوانية من الارزاق والوظائف والشؤون الخاصة وما كان يطرأ عليها من تضييق او توسيع ولكن مصنفو كتب المصطلح الشريف لم ينظروا اليها الا من الوجه اللغوي فقط ولم يحتفلوا منها الا برواية ما كانوا يعدّونه قدوة وقاعدة في منهج الانشاء واسلوب الفصاحة واطّرحوا كل ما عدا ذلك من الشروط والملحقات والفوائد الواردة فيها واهملوا احياناً ضبط السنين والايام التي كتبت

١) الدينار الجيشي سمّي لاحتياط واقاً يستعمله اهل ديوان الجيش في عبرة الاقطاعات بان يجعلوا اقطاع عبرة دنانير معينة من قليل او كثير . . . وكأنه على ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش في الزمن القديم . . . فيكون عن كل دينار اثنا عشر درهماً وهو صرفه يومئذ (صبح الاعشى ٣ : ٤٤٣-٤٤٢)

٢) صبح الاعشى ٦ : ٥١

فيها وتسمية من خوطب فيها من الدول والاعلام فلم يخلص لنا منها الا هذه القشور من الفقرات والاسجاع التي ذهب لبها ودرج فتاها ولم يبقَ منها للمؤرخ الا جمجمة دون طحن .

وكنا قد وقفنا في خزانة باريس على مجلد من كتاب «اعيان العصر واعوان النصر» لصلاح الدين الصفدي ذكر فيه ترجمة الصاحب امين الملك عبد الله بن تاج الرئاسة القبطي الاصل وزير الديار المصرية والشامية وساق فيها نسخة توقيع سلطاني له بنظر النظّار بدمشق مكان الصاحب شمس الدين غبريال القبطي والاسلمي نظيره من انشاء الصفدي نفسه صرّح فيه بما لا مزيد عليه من البيان والتفسير بمقدار «معلوم» ناظر النظار بدمشق في ايام الامير تنكز المشهور في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن حسن الحظ ان الجزء الذي ورد فيه هذا التوقيع متقن الخط جيد الضبط عارضه المؤلف على الاصل كما يؤخذ من الكتابة التالية بآخره بقلم الصفدي .

«قرأ علي هذا الجزء الثالث وما قبله من كتابي اعيان العصر واعوان النصر الامام المحدّث البليغ نور الدين ابو بكر احمد بن علي بن محمد بن ابي الفتح المنذري الحنفي عرف بابن المقصوص نفع الله به من اصل كتابي بخطي وانا اعارضه بهذا الجزء . . . وكمّلت القراءة بالحائط الشمالي بالجامع الاموي المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة وكتب خليل بن ايبك بن عبدالله الصفدي الشافعي في سابع عشر شهر الله المحرم سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (١٣٥٧ م) حامداً ومصلياً»

ومع هذه القراءة والمعارضة لا يخلو هذا الجزء من اماكن فيها بياض او نقص او اغلاط يسيرة بعضها لا ريب من سهو الناسخ ذهل المؤلف او شغل عن تصحيحها عند المراجعة وبعضها وهو الاقل لا يبعد ان يكون من قلم الصفدي نفسه على فضله وجلالة علمه وهي صدى بعض اللهجات والملاحن العامية ونذر ان يسلم منها كاتب من كتبة دولة المماليك المصرية .

وقد اغفل الصفدي ذكر تاريخ هذا التوقيع ويُرجّح ان يكون سنة ٧٣٢ للهجرة (١٣٣٢ م) وهي السنة التي سخط فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون على الصاحب شمس الدين غبريال وورد فيها المرسوم للامير تنكز بالقبض عليه

ومصادرته[1] . ففيها دون شك ولي الوزير امين الملك بن تاج الرئاسة مكانه بدمشق الى ان لقي مثل جزائه ومات تحت العقوبة سنة ١٣٣٩/٧٤٠

واتفق لنا بعد ذلك ان عثرنا على نسخة هذا التوقيع في الجزء الثاني عشر من « صبح الاعشى » (ص ٨٦—٨٩) فبادرنا لمعارضتها على نص « اعيان العصر » واذا القلقشندي قد تصرف فيها بعض التصرف واسقط منها عدة فقرات وعبارات متفرقة واهمل ما ينيف على عشرة سطور من الخاتمة فضلًا عن القطعة باسرها التي اشتملت على تعداد « المعلوم » و « الراتب » فرأينا من الصواب والامانة ان نثبت هنا متن الاصل بتمامه لفائدته التاريخية والادبية ولاسيما انه فيما نعلم التوقيع الفرد الذي جاءت فيه صورة المرسوم السلطاني كما صدرت من قلم منشئه في الديوان دون اقل اختصار او اختلاف . قال الصفدي :

« لما رُسم للصاحب امين الدين بنظر النظار بدمشق كنت اذ ذاك في ديوان الانشاء بالديار المصرية وكتبت له توقيعًا شريفًا ونسخته :

الحمد لله الذي جعل ولي ايامنا الزاهرة امينًا واحلّه من ضمائرنا الطاهرة مكانًا ابانا توجّه وجده مكينًا وخصّه بالاخلاص لدولتنا القاهرة فهو (...) يقينًا يقينا

وعضد بتدبيره مملكتنا الشريفة فكان على نيل الامل الذي لا يمين يمينا وفجّر خلال خلاله غرًا اصبح على نيل السعود عينًا عُينا وزّين به آماق المعالي فما دجا امر الا وكان بفكره صبحًا مبينا وجمّل به المراتب الفاخرة فكم قلد جيدها عقدًا ثمينًا ورصّع في لحمها درًا ثمينًا واعانه على ما يتولاه فهو الاسد الاشدّ الذي اتخذ الاقلام عرينا

نحمده على نعمه التي خصّتنا بولي تتجمّل به الدول وتتمنى الممالك بتدبيره عن الانصار والحول ونحمد ايامنا الشريفة عليه ايامُ من مضى من الملوك الاول وتحمل السعود حيث حلّ اذ لم يكن لها عنه حول ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة نستظهر بها ثوب الصواب ونرفل منها في ثوب الثواب ونذخر منها حاصلًا ليوم الحساب ونعتدّ بزها واصلًا ليوم الفصل والمآب ونشهد ان سيدنا محمدًا عبده الصادق الامين ورسوله الذي لم يكن على الغيب بضنين وحبيبه الذي فضل الملائكة المقربين ونجيّه الذي اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى حجّة على الملحدين

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صحبوا ووزروا وآيدوا حزبه ونصروا وبذلوا في نصحه ما قدروا وعدلوا في ما خطوا وامروا صلاةً تكون لهم هُدًى ونورًا اذا حُشروا وخضوع عارفهم في الغُرَف ويطيب نشرهم اذا نُشروا وسلّم تسليمًا كثيرًا الى يوم الدين

---

١) الرأي من المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي . باريس ٢٠٦٨ ص ٣٠

وبعد فان اشرف الكواكب ابعدها دارا واجلّها سرّى واقلها سرارا وادناها مبارًا واعلاها منارا واطيب الجنّات جنابًا ما طاب أرجًا وثمارا وفُجّر خلاله كل نهر تروع حصباء حاليته المدارى (٢٥ ٣٠) ورنّحت سماطفّ غصونه سلافةُ النسيم فتراها سكارى وغدّ ظلال الغصون فتخال انها على وجنات الاغصار تدبّ عذارا وكانت دمشق المحروسة لماهذه الصفات وعلى صفاها صبّ نسمات هذه السمات لم يتصف غيرها بهذه الصفة ولا اتفق اولو الالباب الا على محاسنها المختلفة فهي البقعة التي يعارب الاوصاف حمالها الجياد والبلد الذي ذهب بعض المفسرين الى انها إرم ذات العماد وهي في الدنيا انموذج الجنة التي بها وُعد المتقون ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرزقون وهي زهرة ملكنا ودرّة بلكنا وقد خلت هذه المدة ممن يراعي مصالح احوالها ويرعى نجوم اموالها ويدبّر امر مملكتها اجمل تدبير ويحمي حوزتها ويحاشيها من التدمير فبسم منها غفلا ويحلي عُطلا ويملأ خزائنها خيرًا يُجلى اذا ملأنا ساحتها خيلًا ورجلا تبيّن ان تتدب لها من خبرناه بعدًا وقربا وهززناه مشقّفًا لدنًا وسللناه عضبا وخبأناه في خزائن فكرنا فكان اشرف من نذّخر واعزّ ما نخبا

كم نهى في الايام وامر وكم اشد ازرًا لما وزّر وكم غنيت بهَ ايامنا عن الشمس ولياليتا عن القمر وكم رفعنا راية مجد تلقاها عرابة فضله بيمين الظفر وكم علا ذُرى رتب تنزّ على الكواكب الثابتة فضلاً عمن يتثقل في المباشرات من البشر وكم كانت الاموال جمادى فاعادها ربيعًا غرّد به طائر الاقبال وصفر .

وكان المجلس العالي القضائي الوزيري الصاحبي الاميني هو معنى هذه الاشارة وشمس هذه الهالة وبدر هذه الدارة تزل من الطباء في الصميم وفخر باقلامه التي هي سُمر الرماح كما فخرت بقوسها تميم وتحفظت الاموال في دفاتره (٢٥ ٣٠) التي برشيها فآوت الى الكهف والرقيم وقال لسان قلمه « اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم » .

عقم الزمان بان يجيء بمثله ان الزمان بمثله لعقيم

وتشبّه به اقوام فباتوا وبادوا وقام منهم عباد العناد فلما قام عبد الله يدعوه كادوا اردنا ان ينال الشام فضله كما نالته مصر فما يساهم فيه سواهما ولا يقول لسان الملك لغيره :

حللتَ جذا حلّةً ثم حلّةً جذا فطاب الوادیان کلاهما

فلذلك رُسم بالامر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري اعلاه الله وشرّفه ان يُفوّض اليه تدبير الممالك الشريفة بالشام المحروس ونظر الخواصّ الشريفة والاوقاف المجرورة على عادة من تقدمه في ذلك وبمطالعه الشاهد به الديوان المعمور الى آخر وقت وهو في الشهر مبلغ : اربعة آلاف وست مائة وثلثة وسبعون درهمًا . تفصيله :

عن نظر المملكة الشريفة بالشام المحروس : اربعة آلاف ومائة وثلث وثلثين وثُلثين(١) (كذا) :

مبلغ :	الفان وسبع مائة وثلثين وثلثون وثلثين
ثمن لحم وتوابل :	الف وثلث مائة وخمسون درهماً
قمح :	غرارة ونصف

عن نظر الخاص الشريف :

مبلغ ثمن لحم وتوابله ثلثة ارطال بالدمشقي : خمسمائة واربعون درهماً

غلّات عن الوظيفتين : تسع وعشرون غرارة تفصيله :

قمح :	تسع غرائر
شعير :	عشرون غرارة

اصناف المشاهرة بالوزن الدمشقي :

سكر بياض :	اثنان وعشرون رطلاً ونصف
حطب :	تسع قناطير

وفي اليوم بالدمشقي :

خبز :	خمسة عشر رطلاً	
شمع :	اوقية ونصف	(٣٠ ٢٧ ٣)
ماورد :	اوقية ونصف	
صابون :	اوقية ونصف	
زيت طيّب (٢) :	نصف رطل	

والكسوة والتوسعة والاضحية والاتبان على العادة كمن تقدمه في ذلك .

فليتلقَّ هذه الولاية بالعزم الذي نهده والحزم الذي شاهدناه ونشهده والتدبير الذي يعترف له الصواب ولا يجحده حتى تشمّر الاموال في اوراق الحساب وتريد غوْرًا وسموًا فتفوت الامواج في البحار وتفوق القطر في السحاب مع رفق يكون في شدّته ولين يزين مضاء حدّته وعدل يصون مهلة مدّته والعدل يسر والجور

١) في الامثال القديمة : ابرد من يستعمل النحو في الحساب ولا شك ان الصفدي تذكر به حين حكى لحن العامة في الاعداد . واضافة «الثلثين» زيادة لا يصححها التفصيل .

٢) الزيت الطيّب هو زيت الزيتون خاصة تمييزاً له عن بقية الزيوت ولا تزال هذه التسمية معروفة بمصر ومن الغريب عدم ذكر السمن والدهن في جملة الجرايات .

يدّخر ولا يستر بحيث ان الخفوق تصل الى ارباجها والمعالم تطلع بدورها(١ كعلة في كل هلال على اصحابها والرسوم لا تُراد على الطاقة في باجها والرعايا يجنون ثمر العدل متشابها واذا انعمنا على بعض اوليائنا بجعل(٢ فلا تكدّر بان تؤخّر واذا استدعينا لابوابنا بهمّ فليكن الإسراع بخجل البرق المتألّق في السحاب المسخّر فما اردناك الّا لأنك منهم خرج من كنانه وشهم لا يثني الى الباطل عنانه فاشكر هذه النعم على مثانيها وشنّف الاسماع بمدائحها متحققاً ان في الشغل بلوغ العز والامل وانه لو كان في شرف المأوى بلوغ متى لم يبرح الشمس يوماً دارة الحمل فاستصحب الفرح والجذل بدل الفكر والجدل وسر على بركة ارائنا الشريفة وقل : وفي بلادٍ من اختها بدل واختر ما اختارته لك سعادة (دولتنا) المؤيدة المؤيدة فطرفها بالذكاء مكتحل :

ان السعادة في ما انت فاعلهُ وُقفتَ رتحلًا ام غير مرتحل

فما آثرنا توجهك الى الشام الا ليأتيك المجد من هنا وهُنّا لانك اذا كنت منا في المعنى فما غبتَ في الصورة عنّا وابسط املك انك اليوم لدينا (٣٣° ٢٧' ٣") مكين أمين ونزّه نفسك فقد آويت الى ربوة ذات قرار ومعين والوصايا كثيرة وانت ابن بجدها علماً وسرعة وفارس نجدها الذي لا يقدم على امر حتى يعرف مصرفه فما نحتاج ان نرشدك منها الى علم ولا ان نشير اليك فيها بأنملة قلم وتقوى الله عزّ وجلّ هي العروة الوثقى والكعبة التي من تطوّق بها فلا يضلّ ولا يشقى فمُضّ الناجز عليها وضُمّ يديك على مُطنّبها والله يتولى ولايتك ويبين دربتك بالامور وعنايتك والخط الشريف اعلاه الله وشرّفه اعلاه حجّة لثبوته والعمل بما اقتضاه ان شاء الله تعالى

ولا تخفى مكانة هذا التوقيع بين آثار دمشق. وقد فاتنا فيه معرفة انواع الكسوة التي كانت تطلق للوزراء. وليت الصفدي أتمّ تفصيل « العادة » فيها لفائدته اليوم وغنائه في تاريخ الثياب في عهد المماليك . وكذلك جهلنا اصناف التوابل التي كانت تُجهّز بها الاطعمة لموائد عمّال الدواوين ومن العجيب انه لم يرد ذكر للفاكهة في جملة الرواتب على وفرة الاثمار بدمشق. وكان الوزراء بمصر في عهد الفاطميين تُحمل لهم في كل شهر سِلال منها وهو ما نقله الصيرفي في كلامه على امين الدولة الحسن بن عمار قال :« لما أفضت الخلافة الى الحاكم بامر الله في سنة ست وثمانين وثلثمائة (٩٩٦ م) استوذن في الجرايات التي كان

١) في صبح الاعشى « تطلع بدور بدرها »
٢) في الاصل « بجعل » وفي صبح الاعشى « بتحمل »

العزيز بالله امر اقامتها في كل شهر لامين الدولة هذا وهي خمسمائة دينار للحم والتوابل والفاكهة مع ما كان يقام له خاصاً وهو سلة في كل يوم وحمل ثلج بين يومين فامر باجراء ذلك »[1] ومعلوم ان هذا الثلج الذي كان يوزّع بمصر كان يحمل اليها من دمشق فكيف لم يكن يعطى منه شيء للوزراء بدمشق على شدة الحر في اشهر الصيف ومما انفرد به عمّال الدواوين في العراق دون عمّال مصر والشام فيما يظهر وظائف الكاغد والقراطيس كما سبق من لفظ الهلال الصابيّ .

ومن الغريب في نظرنا اليوم ان تكون الدولة وقتئذٍ بدلًا من تقدير جملة الارزاق ووزن قيمتها نقداً اختارت صرف جانب منها بالدراهم وتحتمل عبء جراية جانب آخر من الغلال والاطعمة والحوائج وهو ما كان يقتضي طبعاً وجود مؤونة كافية منها في حواصل ودور لها تبتاع فيها ما يلزم تحت إشراف عمّالها ولا شكّ ان هذه الحواصل هي التي كانت تدعى « خزانة الطُعم » او « الحوائج خاناه » في مصر و « دار الطعم » بدمشق .

ولا حاجة الى التنبيه على ان كل هذه الارزاق والرواتب التي عددها التوقيع لم تكن تفي ابداً بنفقات الوزراء بدمشق ومع ذلك لم يكن احدهم يلي هذا المنصب حتى ينكفيء عنه بثروة طائلة ومقتنيات عريضة كانت تترامى شهرتها احياناً الى مسامع السلطان فلا يلبث ان يأمر باعتقال الوزير ومصادرته حسبما نقلناه من نكبة الصاحب شمس الدين غبريال سلف صاحب التوقيع في وزارة دمشق . قال ابن تغري بردي :

« ورد المرسوم بالقبض عليه فأمسك بدمشق وأخذ منه اربعمائة الف درهم ثم طلب الى القاهرة وأخذ خطه بالف الف درهم فأفرج عنه بعد ان وزن المبلغ المذكور ما خلا مائتي الف درهم فاستطلق له قوسون ذلك من السلطان ثم تغير خاطر السلطان ثانياً . وقيل عنه ان له وداثع في دمشق فكتب السلطان الى تنكز فتتبّع وداثعه فظهر له شيء كثير ولما مات سنة اربع وثلاثين وسبعمائة (٣٤ — ١٣٣٣ م) ظهر له ايضاً جملة مستكثرة »[2]

ولا شكّ ان هذه الملايين الراهنة كان الوزراء اكثر ما يجمعونها من

---

١) الاشارة الى من نال الوزارة ص ٣٦

٢) المنهل الصافي الجزء الرابع . باريس ٢٠٦٨ ص ٣٠

الخيانات والمظالم ومصادرات التجار والكتاب في كل عزل وولاية وعلى الخصوص من التقادم والرشى نعم ان الامير تنكز نائب السلطنة بالشام في ايام شمس الدين غبريال كان قد منع وامتنع من قبول التقادم والهدايا على الاطلاق وانصف العامة والتجار بخلاص حقوقهم من الامراء ولكنه ما عتم ان أصيب بنفس الداء الذي اراد استئصال شأفته قال المقريزي :« فلما كانت آخر ايامه صادر جماعة كثيرة من كتاب السرّ وغيرهم ومن الضمان والعرفاء واتخذ الاملاك واخذ عدة اوقاف من اولاد الملوك حتى كانت غلّة املاكه كل سنة مائة الف درهم »[1] ومن جملة هؤلاء الكتاب الذين استباح اموالهم فريق من اعيان النصارى كانوا في خدمة بعض الامراء وديوان الجيش اتّهمهم بانهم احرقوا الجامع الاموي سنة اربعين وسبعمائة (١٣٣٩ م) ليتمكن من نكبتهم واستصفى منهم ما يزيد على مليون درهم بعد ان افحش في تعذيبهم ورسم ان يُصلبوا ويطاف بهم يومين حول المدينة وفي الصالحية بطولها مسمّرين على الجمال ثم امر بانزالهم وتوسيطهم اي قطعهم من اوساطهم وهم احد عشر نفرًا واضطرت حينئذ جماعة من النصارى ان تدخل في دين الاسلام[2] « فكتب السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) الى تنكز يُنكر عليه قتل النصارى وان في ذلك إغراء اهل قسطنطينية بمن يَرِد اليهم من التجار المسلمين وقتلهم ويأمره ان يحمل ما وجد لهم من المال »[3] . وهو ما يدل على ان المنكوبين كانوا من نصارى الروم الملكيين وهم اعظم فِرَق النصارى بدمشق فابى تنكز ان يرسل شيئاً من المال فغضب السلطان لذلك قال ابن قاضي شهبة.« وكانت احد ذنوب تنكز عند السلطان »[4] وما لبث ان امر بالاحتياط عليه ونكبه اشدّ نكبة

---

١) السلوك لمعرفة دول الملوك . خزانة باريس. المجلد الاول ١٧٢٥ ص ٤٨٨

٢) عن السلوك للمقريزي ومسالك الابصار للعمري . ودرة الاسلاك في دولة الاتراك لابن حبيب وتاريخ ابن اسباط المغربي

٣) السلوك ص ٤٨٣

٤) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٦٠٠ ص ٣